القرآن
ومعطيات الفكر الإسلامي

بقلم : الدكتور محمد أحمد العزب

[١]

يشكل **القرآن الكريم** محور الحركة الإسلامية منذ البدء وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فكل العلوم الإسلامية نبعت من محيطه ، وكل الفتح الإسلامي تم تحت رايته ، وكل العبقريات الإسلامية تخرجت في ظلاله .

وقد عرف المسلمون **للقرآن الكريم** هذه الوضعية التاريخية المعجزة ، فأحاطوه منذ نزل ، بقلوبهم حباً وتأملاً عبادياً ، وبعقولهم بحثاً وتعمقاً تنظيرياً ، فكان لهم من ذلك كلّه هذا الرصيد الهائل الضخم من العلوم والفنون والمعارف في شتى منازع الفكر ومختلف الأبواب .

[٢]

والذين يتصورون أن حركة الفكر العربي كانت ماضية إلى غايتها التاريخية في ظل من حتمية التطور واندفاعه دائماً نحو الأرقى والأكمل ، حتى ولو لم يجيء الإسلام حاملاً بين يديه قرآنه العظيم ، **وَاهِمُونَ أَوْ هُمْ خَابِطُونَ** ، لأن ذلك قد كان يمكن أن يكون لو أن الإسلام جاء استطراداً طبيعياً لمسيرة الفكر العربي في اتجاهيه : **المادي والمعنوي** ، لأن احتمال الموافقة حينذاك كان يمكن أن يعطي احتمال الاستطراد التاريخي في الاتجاه نحو التطور الطبيعي ... ولكن الذي حدث قد كان شيئاً مغايراً تماماً ، **فالإسلام لم يجيء استطراداً طبيعياً للنمط الحياتي أو النمط الفكري الجاهلي ، بل هو على النقيض ، جاء مصادرة كاملة أو قل شبه كاملة لنوعية التعامل الفكري والحياتي في المجتمع العربي ، ربما باستثناء بعض الملامح الصميمية التي تمليها فطرة الخلق في بشرية البشر وإنسانية الإنسان** ... أما ما عدا ذلك فقد جاء الإسلام بنقيضه تماماً ليؤسس عالماً مغايراً في الكم والكيف ، وليبدأ من منطلق هذا الانقلاب الشمولي **حركة فكر جديدة** . توصل لعلوم جديدة ، وتقعد لنظرية جديدة ، وقد اتخذ من القرآن الكريم محور حركته في كل هذه الاتجاهات ، مما يؤكد على أن الإسلام بدأ بالفعل يعطي للفكر العربي مضموناً مغايراً وجديداً ويبدأ به رحلة إبداع وتنظير جديدة ، ويضع له وبه من العلوم النظرية والتطبيقية ما ينبىء عن إسلامية خَلْقِهَا وتشكيلها وتكامل وجودها الموضوعي ، بعيداً عن استطراد تاريخي متوهم يمكن أن يكون به امتداداً للمسار الجاهلي في جانبه العقلي أو جانبه العقائدي .

[٣]

وإذا قلنا : **إن القرآن الكريم بدأ هذا الفتح الفكري المسلم** ، فليس هذا القول نابعاً من تعصب عرقي أو عقائدي ، ولكنه تأمل موضوعي لظاهرة تاريخية فرضت حلولها على خريطة الواقع الحي ، وفسحت للمسلمين بها مكاناً عريضاً وعميقاً في مسيرة الفكر والإبداع الإنسانيين ، وجعلت من الحركة الإسلامية انعطافة بالتاريخ كله من مناطق العبودية والاجترار والتكرار ، إلى مناطق التفجر والإبداع والابتكار ، وهذا هو الحجم الحقيقي لأية ظاهرة أصيلة تنبع من صلابة نظرة كونية شاملة ، وليس هشاشة فكر عرضي خابط أو متردد بين الخبط والاستواء !!

[٤]

ولأن المسلمين قد عرفوا **للقرآن الكريم** كل هذا الدور الخطير في تشكيل ملامح الظاهرة الإسلامية ، فقد استقطبوه تأملاً ودراسة وتفسيراً ، **وحاولوا من خلال هذا الاستقطاب أن يلموا بجوانب إعجازه واكتنازه ، ولكن الأجيال الخالفة كانت تجد دائماً في القرآن مناطق لم تستوعبها جهود الأجيال السالفة ، وستجد كل الأجيال ـ دائماً ـ في هذا الكتاب المعجز الخالد ما يثير فكرها نحو مزيد من الإبداع والفكر ، وما يحرك عقلها نحو مزيد من التنظير والتأصيل ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .**

[٥]

لقد لحق **النبي** ﷺ بربه والقرآن وديعة في صدور الرجال ، وفي عديد من الصحف المفرقة التي خطها كتاب الوحي ، وأحجم **أبو بكر الصديق رضي الله عنه** أن يقدم على ما لم يفعله **النبي** ﷺ من جمع القرآن وإثباته تعبداً وتحوطاً ، **ولكن فارس**

الفكر الإسلامي المقتدر ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه سار إلى أبي بكر ، وقد هاله كثرة القتلى من حملة القرآن في حروب الردّة الطاحنة ، وقال له : إن أصحاب رسول الله باليمامة يتهافتون تهافت الفراش في النار وإني لأخشى أن لا يشهدوا موطناً إلا فعلوا ذلك ، حتى يقتلوا ، وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسى ، فلو جمعته وكتبته .. فنفر منها أبو بكر وقال :

أفعل ما لم يفعله رسول الله ؟ وتراجع في ذلك ؛ ثم أرسل **أبو بكر** إلى **زيد بن ثابت** ؛ قال **زيد** : **فدخلت عليه وعمر مسربل** ، فقال لي **أبو بكر** : **إن هذا قد دعاني إلى أمر فأبيت عليه ، وأنت كاتب الوحي ، فإن تكن معه اتبعتكما ، وإن توافقني لا أفعل ، فاقتص أبو بكر قول عمر ، وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك ، وقلت : تفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ ؟!! إلى أن قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ فذهبنا ننظر ، فقلنا : لا شيء والله ، ما علينا في ذلك شيء ، قال زيد : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأدم ، وكسر الأكتاف والعسب .**

[٦]

وهذا موقف ينبىء عن اتجاهين أساسيين اعتصم بهما الفكر الإسلامي الرائد حيال محور حركته ، القرآن الكريم : **اتجاه محافظ .. يتحرج أن يفعل ما لم يفعله النبي ﷺ في حياته ، حتى ولو كان هذا الفعل حياطة القرآن الكريم من مظنة الضياع والنسيان .. واتجاه واقعي جسور يتحرج هو الآخر أن يشل إرادة نحو صيانة قرآنه ، حتى ولو لم يكن النبي ﷺ قد فعل مثل ذلك في حياته .. إلا أن ذلك يتم في إطار من موافقة السنة ولا يحيد عنها مجرد لحظة هنا أو هناك .**

وبعيداً عن جمود الاقتناع الذاتي بصواب اتجاه معين ، يتشاور الرجلان الجليلان حول محور القضية المطروحة ، ويبدي كل منهما رأيه في هدوء علمي جليل ، وحين يحسان أن المسافة بينهما لا تقترب ، يستدعيان كاتب الوحي ويطرحان أمامه القضية وموقف كل منهما حيالها ، ويطلبان إليه المشورة والرأي ، حتى إذا آنس الرجل من نفسه ميلاً إلى رأي دون رأي ، صدع به بلا مبالاة .. ولكن (**كلمة**) مقنعة من طرف ، تبدد غواشي التردد في نفس الطرف الآخر ، فإذا هو صادع للحق ، ماض إلى إنفاذ الرأي النقيض في بطولة فكرية رائعة ..

أما موقف **عمـــر** في هدوئه العلمي الرصين فينبغي أن يكون أنموذجاً يحتذى في كل حوار على كل مستوى وفي كل اتجاه ، فقد ألقى إلى خليفته **أبي بكر** برأيه في القضية ، وظل معتصماً بأدب الجندي ، صامتاً في حومة الحوار الدائر بين الخليفة الأول وكاتب الوحي ، حتى إذا لاح له أن القضية توشك أن تتجمد بينه وبينهما ، لم يزد على أن قال : **وما عليكما لو فعلتما ذلك** ؟ ويتسرب بهذه القولة الحكيمة إلى أعماق الرجلين معاً ، فيجدّان في إنفاذ ما أشار به ، وإمضاء ما رأى ورأيا من صواب .. وإننا لنحسبه قد خرج من مجلس الخليفة الأول وهو يتمتم بدعاء الشكر لله أن قيَّض لرأيه مسافة في قلب صاحبه أتاحت لرأيه أن يخرج من عالم الحلم إلى عالم التحقق ..

[٧]

وإذا دل هذا التحوط المحاذر على شيء فإنما يدل على تحرج بالغ حيال هذا الكتاب المعجز الخالد ، وعلى إحساس حقيقي بإلٰهية هذا **القرآن الكريم** الذي تلقفه المسلمون بعقولهم وقلوبهم مطراً سماوياً جليلاً يخصب الجدب ويحول وجهة التاريخ ...

وقد تفيق حركة الإلحاد العالمي المعاصر على إيقاع مثل هذه الحقائق البادهة ، فلو أن طلائع الصحابة الذين عايشوا **النبي** ﷺ كانت تتسرب إليهم ذرة من الشك في إلٰهية القرآن لما أحسوا نحوه ، وقد لحق **الرسول** ﷺ بربه ، بكل هذا التحرج البالغ ، وَلَبَدَا من بعضهم بصيص من جراءة ينفرد بها حتى في جمع هذا القرآن وتدوينه ، وهو الأمر الذي لا يضير القرآن ... إن هذا التحرج في أمر ظاهر الطهارة والبراءة ، من هذا النفر الجليل من صحابة **النبي** ﷺ وخلصائه يؤكد بلا حدود إلٰهية القرآن ، وإيمان الرعيل الذي عاصر وحيه وتلقّيه بأن محمداً لم

القرآن
ومعطيات الفكر الإسلامي

يكن سوى بشر رسول يوحى إليه ، ويحمل عن ربه كلماته إلى الناس ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولينتقل بهم من بداوة تاريخ دموي غليظ إلى حضارة تاريخ قرآني شفيف .

[٨]

وقد اصطنع **زيد بن ثابت** في جمع القرآن وتدوينه منهجاً علمياً بالغ الدقة والإحاطة ، فقد شعر بجسامة التبعة التي ألقاها **أبو بكر** على عاتقه ، حتى إنه قال :

(**فوالله لو كلَّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن**) . لقد عمد **زيد** إلى الحفَّاظ يستنبئهم ويسمع إليهم ، وعمد إلى الرقاع والأكتاف واللخاف والعُسب يجمعها ويوازن بينها ، وعمد إلى ذاكرته هو وما وعته من حفظ القرآن عن **رسول الله** ﷺ في السنة الأخيرة من حياته يستحثها ويثيرها ، ثم راقب في يقظة كاملة حقيقة أن **أبا بكر** يحفظ القرآن ، **وعمر** يحفظه ، **وعلياً** يحفظه **وعثمان** يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه أو يحفظون منه أجزاء كثيرة ، إلى جانب أن أربعة من الصحابة هو واحد منهم جمعوا القرآن على عهد **النبي** ﷺ ، وذلك فيما يرويه مسلم والبخاري عن أنس بن مالك أنه قال :

(**جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد**) وقول **أنس** هنا لا يراد به أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن في عهد **النبي** ﷺ دون سواهم ، يقول **القرطبي** :

(**فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن : عثمان ، وعلي ، وتميم الداري ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص** ... فقول **أنس** : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من **رسول الله** ﷺ غير تلك الجماعة ، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه ، وبعضه من غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة هؤلاء جمعوا القرآن على عهد **النبي** ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام ، وإعظام **الرسول ﷺ لهم**) .. بل إن آخرين كتبوا مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، ومن هؤلاء : **عبد الله بن مسعود** .

كل هذه المصادر البشرية والوثائقية كانت تحت عين **زيد بن ثابت** وهو ينهض بعملية جمع القرآن الكريم ، وكان من غير شك يراقبها مراقبة محاذرة ، ويرجع إليها كلها أو بعضها كلما أشكل أمر أو استبهم طريق ، فإذا أضفنا إلى ذلك حتمية إيمان **زيد** ومراقبته الخاشعة لله ولذكرى رسوله ﷺ الذي كان **زيد** كاتب وحيه وأمين سره إلى زمن قريب ، أدركنا إلى أي مدى كان توثيق هذا الكتاب الخالد المعجز خالياً من الرَّكاكة التي طرأت على توثيق غيره من الكتب تحقيقاً لوعد الله عز وجل :

﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ .

[٩]

وحين جمع **زيد بن ثابت** آيات القرآن لم يجمعها في مصحف واحد ، ولكنه جمعها في صحف مختلفة أودعها عند **أبي بكر رضي الله عنه** ، ثم انتقلت هذه الصحف من **أبي بكر** إلى **عمر رضي الله عنه** ، ثم إلى **حفصة بنت عمر** ، حتى إذا ولي **عثمان** رضي الله عنه أمر المسلمين بعث إلى **حفصة** في طلب هذه الصحف ، وعهد إلى جماعة من الصحابة منهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص بجمعها في مصحف واحد ، ونسخ منها نسخاً وزعها على الأمصار ، فأرسل منها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، واستبقى في المدينة واحداً ، وهو مصحفه الذي يسمى **الإمام** ، وكان ذلك في **سنة خمس وعشرين للهجرة** .

[١٠]

واتفاق المؤرخين منعقد على أن ترتيب الآيات في السور كان واحداً في كل المصاحف التي جمعت قبل وفاة الرسول ﷺ والتي جمعت بعد وفاته ، وقبل أن يأمر **أبو بكر** بجمع القرآن ، أما جمع السور وترتيبها فقد ترك لاجتهاد الأمة وخلفاء النبي[1] ﷺ :

(**روى ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم .. ووضعتموها في السبع الطوال ؟! فقال عثمان : « كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة** ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر **بسم الله الرحمن الرحيم** ، ووضعتها في السبع الطوال) .

وإذن فترتيب الآيات في السور تم بتوقيف النبي ﷺ ، ولقد قبض وهذا الجمع تام معروف للمسلمين ، ثابت في صدور القراء والحفاظ .

ونصوص القرآن تؤيد ما سبق ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ **يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ**

● لم يأت الإسلام استطراداً طبيعياً للنمط الحياتي أو النمط الفكري الجاهلي ، بل هو على النقيض ، جاء مصادرة كاملة أو شبه كاملة لنوعية التعامل الفكري والحياتي في المجتمع الجاهلي ..

قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل : ١-٤) .

وآيات المزمل هذه نزلت في الفترة الأولى من بعث الرسول . فمطالبة النبي ﷺ فيها أن يقوم الليل ويرتل القرآن ترجح أن الآيات لم تكن مبعثرة من غير ترتيب ، وتؤكد ما قدمنا من أن ما كان يوحى إلى النبي ﷺ متصلاً بوحي سبق إليه كان الوحي يلحقه به ، وذلك قولهم إن جبريل قال للنبي ﷺ حين أوحي إليه قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ : يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة »[٢] .

من هنا يتضح أن عمل **زيـــد** في الجمع والتدوين كان توقيفياً من جهة ترتيب الآيات في السور ، وأنه اكتفى بذلك في عهد **أبي بكر** فجمع السور في ألواح وعسب ولخاف ، وتركها هكذا حتى تم لها في زمن لاحق أن تأخذ شكلها الاستطرادي ، لعله زمن **عمـــر** أو زمن **عثمان** كما يقول العلماء على خلاف في ذلك بينهم .

[١١]

والذي يتأمل تاريخ الفكر العربي قبل الإسلام وبعد الإسلام ، يَرُوعُهُ ما يجد هناك من جدب فكري إلا بعض الإطلالات التي تلوح من خلال الحركة الشعرية الناشطة في الجاهلية ، وبعض من فلتات القول في حكمة تروى أو مثل يسير أو خطبة تذهب في الناس ... ثم ما يجده هنا من عطاء علمي وفني في كل اتجاهات الفكر والفن ، من علوم تتصل ببنية اللغة وحقائق التعبير ، أو علوم تتصل ببنية الكون وحقائق الأشياء ... فإذا حاول أحد أن يتلمس الحافز الحقيقي وراء هذا التحول الهائل وجده كامناً في القرآن الكريم : فهو الذي دعا إلى تأصيل علم القراءات حين استنفر قوماً من علماء الأمة إلى ضبط لغاته ، ومعرفة مخارج حروفه .. وإلى تأصيل علم النحو حين استنفر قوماً إلى معرفة المعرب والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وضروب كل أولئك .. وإلى تأصيل علم التفسير حين استنفر قوماً إلى شرح ألفاظه الدالة على معنى أو معان كثيرة ، أو شرح تراكيبه الظاهرة ، أو البعيدة .. وإلى تأصيل علم التوحيد حين استنفر قوماً إلى رصد ما فيه من أدلة عقلية وشواهد كونية على الوجود والوحدانية والخلود .. وإلى تأصيل علم الأصول حين استنفر قوماً إلى معرفة التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والنسخ وأنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء .. وإلى تأصيل علم التاريخ حين استنفر قوماً إلى تأمل قصص القرون والأمم الخالية ودراسة أخبارهم وتدوين آثارهم ووقائعهم .. وإلى تأصيل علم الفلك حين استنفر قوماً إلى النظر في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج .. وإلى تأصيل علم البلاغة حين استنفر قوماً إلى مصاحبة ما فيه من جزالة ونظم ومبادىء ومقاطع وتلوين في الخطاب ، وإطناب وإيجاز[٣] ... وإلى تأصيل علوم الطبيعة والكيمياء حين استنفر قوماً إلى ضرورة البحث في المادة وخواص الأشياء بما لفتهم إليه واستدعى اجتهاداتهم حياله .

وهكذا نرى أن علوم العرب ـ قبل القرآن ـ كانت مزقاً من الفكر لا تشكل نظرية في أي من الاتجاهات ، ولكنها ـ بعد القرآن ـ أخذت طريقها إلى التشكل في نظريات عديدة رَفَدَتْ العلم العالمي آنذاك بكثير من الاجتهادات الصميمة التي أضافت إليه وأخصبت مساره الواثق .. وحسب كتاب ما أن يعمل بكل هذه البطولة المعجزة في كل هذه الاتجاهات النظرية والتطبيقية ، وأن يخرج بأتباعه من حتمية التلقي والاحتذاء إلى حتمية العطاء والامتلاك ، وأن يكون كتاب هداية وعلم ومشرق إيمان وحضارة ، ونبع بلاغة وتأصيل .

[١٢]

يبقى أن نتأمل حركة اتجاهات الفكر المسلم في ظلال القرآن .. لماذا هي ؟ وكيف تشكلت ؟ وما هي خصائصها ؟ وما طبيعة المراحل التي مرت بها ؟ ومن هم أولئك الرواد الذين نيطت بهم بطولة العمل في كل واحدٍ من اتجاهاتها العديدة ؟ بكلمـــة واحدة : **ما هي معطيات الفكر الإسلامي في هذا المجال ؟** وسنرى أن حركة الفكر المسلم في ظلال القرآن من خلال تفسيره ، بعد جمعه وتدوينه ، تضع جهود العلماء المسلمين في مكانها الحقيقي على خريطة الفعل الإسلامي ، وتحدد بالتأكيد طبيعة الموقف العقائدي الذي صدروا عنه في هذا الاتجاه أو ذاك ، وتشير إلى الخط البياني الصاعد الذي يضيف فيه كل عصر إلى كل عصر ، وتضعنا نحن في إطار من حتمية الترقي إلى هذا الأفق الذي إن فاتنا طوق احتوائه كاملاً ، فينبغي على الأقل أن لا يفوتنا أن نتأمل روعته الحقيقية ، وأن نسبح في تيار بهائه بلا حدود !!

هـــــوامش :

(١) **انظر الإتقان في علوم القرآن ـ للسيـوطي ـ ج١ ، ص٢٠٢ وما بعدها .**

(٢) **الدكتور محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ـ ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.**

(٣) **انظر الإتقان في علوم القرآن ـ للسيوطي ـ ج٤ ، ص ٢٨ .**